

# كلية الآداب والحضارة والعلوم الإسلامية

قسم التاريخ

السنة الأولى ماستر حضارة إسلامية

مقياس تاريخ المدن والحواضر في الغرب الإسلامي

الأستاذة صابرة خطيف

## تتمة المحاضرات المقدمة

المحاضرة الأولى: دور الموقع في تطور المدن الكبرى خلال العصر الموحدى " مدن المغرب الأقصى نموذجاً".

المحاضرة الثانية: المدن الساحلية للمغرب خلال العصر الوسيط.

المحاضرة الثالثة: قرطبة في عصر الخلافة

المحاضرة الرابعة: النشاط الاقتصادى لمدن إفريقيا والمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط

## المحاضرة الأولى

### دور الموقع في تطور المدن الكبرى

#### خلال العصر الموحي " مدن المغرب الأقصى نموذجا

أشارت العديد من المصادر إلى أهمية الموقع في بناء المدن، وفي هذه الدراسة يتم تناول عدد من مدن المغرب الأقصى خلال العصر الموحي من خلال المصادر التي تطرقت للموضوع

#### أولا فاس

ارتبطت أهمية فاس بموقعها الذي اعتبره ابن أبي زرع موقعا مثاليا لأنه يضمن لها الماء الجاري والمحراث الطيب والمحطب القريب والسلطان وإذ به صلاح حالها، وأمن سبلها وكف جابرتها، وقد أبرز هذا المؤلف امتيازات هذا الموقع بالتفصيل فتحدث عن الأراضي المزروعة أو الصالحة للزراعة حول هذه المدينة، وعن الكميات الوافرة من الحطب تتزود به هذه المدينة من جبل بهلول الواقع في جنوبها، كما اشتهرت هذه المدينة بغزارة المياه المنحدرة إليها من المناطق المجاورة عبر أودية متعددة أهمها وادي فاس الذي يمر وسطها ثم يخرج منها.

وقد ساهمت متطلبات فاس من المواد الفلاحية في تقدم الزراعة وتنوعها لارتباطها بالتجارة المحلية والبعيدة، وتؤكد بعض النصوص على رواج التجارة المحلية الخاصة بالمزروعات، ما يبرز المستوى المادي لفئة من سكان المدينة تتوفر على قدرة شرائية كبيرة.

#### ثانيا: مراكش

تحدث ابن خلدون عن أهمية الموقع في حماية المدن ونموها وحدده في شرطين أساسيين هما " دفع المضار وجلب المنافع" وقد انطبق ذلك على مدينة مراكش التي اختير لها موقع جيد بحيث ذكر صاحب الجلال الموشية " أن موقعها كان شبه صحراء يناسب حاجة

صنهاجة لرعي جمالهم، وقد تغيرت هذه المعطيات مع تطور الدولة المرابطية وخلال الموحدية، حينما ارتفعت كثافة سكان المدينة، فازدادت الحاجة إلى الغذاء وإلى المياه، وقد طورت الدولة طريقة الحصول على الماء، فحفر المرابطون الآبار وأقاموا السواقي لجر المياه من وادي أغمات إلى مدينة مراكش، مت في العهد الموحي فقد وقعن تطورات كبيرة في توزيع المياه على الأحياء، وفي بناء السقايات.

### ثالثا: سجلماسة

أمكن لموقع مدينة سجلماسة أنه يضمن لها شروط الحياة والتطور فهو إلى جانب توفره على زراعة سقوية على ضفاف الوادي، فسكانها اهتموا بالنشاط التجاري تبعا لوظيفة المدينة التي كانت محطة لقوافل التجارة العابرة إلى غانة والوارد منها، وقبلت تجار الذهب، الذين يتوجهون منها إلى جهات كثيرة، وقد أشار إلى ذلك عدد من الرحالة والجغرافيين.

ومن المؤكد أن العهد الموحي قد وفر لها الشروط الضرورية لنهضة تجارها، وأن علاقتها التجارية زادت متانة مع دولة غانة.

وكان الخلفاء الموحدين يخصون المدينة بأهمية خاصة، فكانوا ينصبون عليها العمال الأكفاء وكان من مهام هؤلاء العمال ضمان أمن التجار وتجارتهم، واستخلاص المكوس من القوافل الصادرة والواردة، وعلى ما يباع ويشترى في أسواقها وأرسالها إلى مراكش.

وكان لموقع مدينة سبتة تأثير على تطورها حيث مكنها شكلها الجغرافي الذي تحيط به المياه من ثلاث جهات، أن يجعل منها مرسى مشهورا وآمنا ترسوا به مختلف السفن، فارتبط سكانها بالتجارة عبر البحر وبالصيد البحري بسبب فقر المنطقة المجاورة للمدينة وعدم صلاحيتها للزراعة.

وقد ازداد عمران المدينة توسعا وسكانها تزيادا ونشاطها التجاري تحسنا عندما ربطت علاقات تجارية مع جنوة ومرسيليا إلى جانب الأسواق الأندلسية والإسبانية، كما كانت لها علاقات تجارية مع المدن المغربية كمدينة فاس وسجلماسة وغيرهما، ومنها أخذت تتزود

بالسلع السودانية المطلوبة في الأسواق الأوروبية كما كانت بها صناعة محلية رائجة في هذه الأسواق.

#### رابعاً: أثر المدن الكبرى في مصير المدن القريبة منها

لقد أدى التطور الذي حدث في المدن الكبرى المشار إليها سابقاً في تقليص وزن المدن القريبة منها، فبناء مراكزها وازدهارها سبب تدهور بعض المدن الواقعة في السطح الشمالي إلى جبال درن على رأسها مدينة أغمات أوربكية وأغمات هيلانة ومدينة نفيس وهي مدن قديمة أشارت المصادر إلى ازدهارها قبل العهد الموحي فآغمات أوربكية مثلاً كانت مدينة التجار والأعيان والصناع، وأنها كانت أهم مركز تجاري في هذه المنطقة ومنها حملت كثير من السلع إلى الأندلس عبر مرسى قوز.

وبتقدم مراكزها وتطورها احتكرت أهم الأنشطة الاقتصادية من تجارة وصناعة، مما دعا الفئات الغنية المستقرة في المدن المجاورة أن تنتقل إليها، وهو ما جعلها أهم سوق في المغرب، ساهمت كل هذه العوامل في تدهور المدن القريبة وندرك من النصوص أن مدينة آغمات كانت في أواخر الموحدين وبداية المرينيين مخربة وفقيرة رغم خصوبة الأراضي المحيطة بها.

وكان لبناء مدينة تارودانت نهضتها في عهد الموحدين تأثير سلبي على المدن المجاورة. ساعدها على ذلك موقعها القريب من منطقة متمردة عليهم، ما جعل منها المركز الإداري والعسكري على هذا العهد، وما يمكن ملاحظته هو أن الصراع بين المدن لم يكن مقتصرًا على العهد الموحي، بل مع بداية تأسيس المدن الإسلامية في المغرب، ولذلك فقد كان بناء مدينة سجلماسة عاملاً في خلاء مدينتي زير وتدغة.

وأدى تطور مدينة فاس إلى تدهور عدد من المراكز الحضرية القريبة منها وظلت تدور في فلكها كأسواق كبيرة لتجار فاس ومن هذه المدن مغيلة وصفروي والمقرمدة وبني تودة وغيرها.

ومن المحتمل أن تعدد الطرق التجارية الرابطة بين فاس والمدن المتوسطية وبينها وبين مراكش أدى إلى تدهور عدد من المدن الواقعة على الطريق التجاري فاس - سبتة باستثناء مدينة قصر عبد الكريم التي أصبحت محطة يتوقف فيها الموحدون عند انتقالهم من مراكش إلى الأندلس أو بالعكس ومنها كانوا يتزودون بالحبوب للغداء والعلف وهكذا يظهر أن المدن الكبيرة كانت عامل هدم على المدن المجاورة لها، لأنها شكلت عامل جذب للنخب التجارية والعلمية والسياسية ولكل فرد أو جماعة تطمح لواقع أفضل لا يمكن أن تلبيه المدن الصغرى

### للتفصيل ينظر

الإدريسي: وصف إفريقيا

الحميري: الروض المعطار

مجهول: الاستبصار

ابن حوقل: صورة الأرض

الوزان وصف إفريقيا

ابن خلدون: المقدمة

ابن أبي زرع: الأنيس المطرب

الجزنائي: جنى زهرة الآس

البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب

## المحاضرة الثانية

### المدن الساحلية للمغرب خلال العصر الوسيط

يعتبر ابن الحوقل أول مصدر جغرافي للواجهة البحرية للمغرب إذ يعتبر شاهد عيان على واقع هذه المنطقة، فقد اهتم بذكر أهم مراسيها، وخصائصها وقال بعد وصف هذه المراسي " وهذه جملة أحوال المدن المشهورة والمراسي والقرى المعروفة على نحو بحر المغرب من حد برقة إلى البحر المحيط مما انتهت إليه وأدركته بالعيان أو أخذته عنم نشأ فيه.

كما ذكر المقديسي أبعاد هذه المدن والمراسي، ويمكننا البكري من الوقوف على أهم الطرق والمسالك لشمال المغرب.

وبالرغم من اهتمام الدولة الأغلبية بالنشاط البحري، فإن المدن المهمة بالمغرب قبل بجاية تحدد موقعها في الداخل كتيهت وسجلماسة وأشير و القلعة وتطسان وطبنة.

وقد ارتبط ذلك بمسار الفتوحات الإسلامية التي حاولت الابتعاد عن الساحل قدر الامكان نظرا لكون الساحل مهدد بالوجود البيزنطي الذي شكل بؤرة مقاومة هامة للفتح الإسلامي بالإضافة إلى التركيبة الاجتماعية الأساسية لسكان الساحل والمكونة من البيزنطيين والأفارقة و البربر المتبنين للثقافة اللاتينية.

تحددت أهمية المدن في الفترة الوسيطة على مستوى الكتابة التاريخية في المدن العواصم ومدن الأقاليم بحيث ارتبط الدوين بالأحداث السياسية عموما إذا استثنينا من ذلك كتب الجغرافيا والرحلات، وحتى كتب التراجم والطبقات تركزت على نخبة المدن السلطانية.

لكن الظروف الملائمة لسكانة الساحل المغربي والبيزنطي شجعت على الزيادة السكانية في المنطقة نستدل في ذلك إضافة إلى النصوص السابقة بشهادة الزهري في قوله عن البحر

الرومي" وليس في معمور الأرض أكثر عمارة من هذا البحر، وذلك أنه معمور الجانبين، لا تنقطع العمارة منه، يكاد الناس يتعاطون السراج عليه من الضفتين لكثرة المسكن، وذلك أنه يسكن عليه أمم كثيرة من الجانبين".

لقد شكل النشاط التجاري العامل الرئيس في عمران مدن الساحل، من جهة ربط المناطق الجنوبية بالشمال، أو الوصل بين سواحل بلاد المغرب والأندلس وأوروبا و المشرق، وتجدر الإشارة إلى أن العديد من المدن الساحلية ببلاد المغرب كان منشؤها الأول هو مرسى للتجار، ثم تطورت هذه المراسي لتتحول إلى مدن بكل مقومات المدن الكبيرة والهامة والتي تطورت مع توالي القرون.

مع انتقال الفاطميين لمصر وبعد مدة من سيادة الزيريين والحماديين والمرابطيين على المغرب، تخلصت المدن الساحلية من عبئ الحروب التي كانت تعيشها من حين لآخر في إطار الصراع على توسيع النفوذ بين القوى المتناحرة.

وبذلك تعيش هذه المدن الساحلية فترة من الرخاء ابتداء من القرن الرابع وفي ظل الدولة التي أعقبت الموحيدين برزت كل من تونس، بجاية تطسان نظرا لمقوماتها السياسية.

### **للتفصيل ينظر :**

ابن الحوقل: صورة الأرض

المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم

البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب

اليعقوبي: البلدان

حسين مؤنس: تاريخ المسلمين في البحر المتوسط الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب

محمد حسين: المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي

## المحاضرة الثالثة

### قرطبة في عهد الخلافة الأموية

يفصح تاريخ قرطبة خلال القرن الرابع عن مدينة نموذجية لمدن الغرب الإسلامي الكبرى، فقرطبة لم تكن عند الفتح الإسلامي سوى مدينة صغيرة يحيط بها سور حصين واستمرت بعدئذ في الزيادة منذ الفتح الإسلامي إلى سنة أربعمائة وتكشف مختلف القرائن على أنها لم تتحول إلى ظاهرة مدينة حقيقية إلا في عصر الخلافة، إلى درجة أن العمارة اتصلت بين قرطبة والزهاء على طول عشرة أميال، حسب تأكيدات ابن حوقل ولقد بلغت المدينة من الاتساع أن قدر مدارها الحضري بحواب "ثلاثة وعشرين ميلا" والذي احتضن إلى جانب المدينة المركزية القديمة واحدا وعشرين ريبضا حسب تحديد ابن بشكوال ، وخلال العصر أسست المدينتان الماكيتان الزاهرة والزهاء بالأحواز المباشرة للعاصمة لتتضافا إلى هذا التجمع الحضري الضخم.

اتسعت دائرة النمو العمراني لتشمل كل الأعمال التابعة لقرطبة يتجلى ذلك في إعادة تعمير القرى التي خربت خلال العصر السابق، إضافة إلى بروز عدد كبير من القرى الجديدة، وقد افادتنا المصادر بالكثير من المظاهر التي تشير إلى الحجم الديمغرافي لهاته المدينة ، من ذلك قضايا الجوار ومشاكل التكديس السكني المعروضة على أنظار المحاكم القرطبية، واضطرار الخليفة الناصر إلى تثبيت خطة الشرطة حتى تستجيب للمتطلبات الأمنية الجديدة، يقول المقري: "وأحصيت دور قرطبة التي بها وأرباضها أيام ابن أبي عامر، فكان مائتي ألف دار وسبعين دارا. وهذه دور الرعية، أما دور الأكابر والوزراء والكتاب والأجناد وخاصة الملك فستون ألف دار وثلاثمائة دار، وفي نفس الموضوع، ذكر ابن حيان



أن عدد دور الرعايا والسواد الواجب على أهلها المبيت في السور أيام الفتنة مائة ألف دار حاشا دور الوزراء وأكابر الدولة".

وتعتبر السوق الكبرى بقرطبة الحلقة المركزية في هذا النشاط، فإليها كانت تنتهي عبر "الطريق السالك بجوف" المدينة بين شرايين المواصلات القادمة من مختلف الاتجاهات حتى تستجيب للزيادة المضطرد في كثافة المبادلات، كما استحدثت أسواق موازية في كل ريف من أرياض المدينة، وبالمثل في مدينتي الزاهرة والزهران، لتتمكن من مواكبة النمو الحضري، بل وامتد النشاط التجاري إلى الحارات، التي شهدت بروز أسواق محلية صغيرة عرفت بالسويقات، كما انتشرت الحوانيت بالأزقة والدروب لمعالجة تجارة التقسيط، وإمعانا في تنظيم الحركة التجارية استحدثت أسواق متخصصة في الاتجار بسلعة محددة من السلع.

وتدرجيا فرضت قرطبة دورها كمحطة أساسية في المبادلات العالمية بين دار الجرب ودار الإسلام، وفيما بين المشرق والمغرب، وبلاد السودان.

بديهياً أن تتسع الخدمات المدنية وتتشعب بالموازاة مع هذا النمو وتسهيلاً لمأمورية التجار الوافدين على المدينة. فمن الخانات والحمامات التي باغت حسب المقرئ "سبعمئة حمام" إلى الفنادق والمطاعم والمرافق المختلفة، فضلا عن المجهودات الحضارية الجبارة التي بذلت لتوفير حاجيات المدينة الضرورية، فلقد تحدث الرازي على سبيل المثال عن "المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة... في قنوات الرصاص" وتحدث غيره عن قنوات تصريف المياه المستعملة وغيرها من المنجزات والجدير بالملاحظة أن الخدمات التجارية لم تنحصر داخل المدار الحضري للعاصمة، بل انتشرت على طول المسالك المؤدية إليها، بعيدا في عمق البوادي، فحيثما سار المسافر والتاجر "يجد الحوانيت في طريقه حوانيت لبيع الخبز والفواكه والجبن واللحم والحوت وغير ذلك.

لم يقتصر دور قرطبة على تنشيط المبادلات، بل تحولت إلى أكبر منطقة للإنتاج الصناعي الحرفي، الذي ما فتئ يزداد هو الآخر تنوعا وتطورا. وعلى غرار الوحدات التسويقية، انتشرت الصناعات خارج السوق المركزي لتشمل بقية الأرياض ولقد أفردت لكل

صنعة دروبا وأسواقا خاصة بها، فضلا عن الإشارات الواردة في بعض المصادر عن "سوق الحدادين" و "سوق الخشابين" و"حوانيت السراجين بسوق قرطبة" تحدث ابن بشكوال عن أفران "الزجاجين" و"موضع الفخارين" وموضع "أصحاب الغرابيل بالسوق" وفي مصادر أخرى متنوعة ما يكشف عن مواقع غيرها من الصناعات.

وكثيرة هي القرائن الكاشفة عن تزايد اعتماد العديد من الحرف الصناعية على الخامات المعدنية.

والجدير بالملاحظة أن العديد من الصناعات القرطبية ارتبط في تسويق منتجاتها بمناطق بعيدة فالفخار المذهب يجلب إليها من أقاصي البلاد، بينما أصبح الكاغد المتميز مشرقا مغربا يصدر من الأندلس، وبالمثل كانت الأدوية تصدر إلى مصر ومكة واليمن، وقد أدي المستوى الاحترافي الذي تميزت به منتجات الأندلس أن تنافس المنتج المشرقي .

### للتفصيل ينظر

البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب

ابن عذارى: البيان

ابن حيان: المقتبس

مجهول: أخبار مجموعة

الإصطخري: المسالك والممالك

المقري: نفح الطيب

ابن حوقل: صورة الأرض

ابن الخطيب أعمال الأعلام

ابن بشكوال: الصلة في أخبار أئمة الأندلس.

السيد عبد العزيز الإسلام: قرطبة حاضرة الخلافة

## المحاضرة الرابعة

### النشاط الاقتصادي لمدن إفريقية والمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط

ميز المغرب ما قبل الإسلام بقلة حواضره، وذلك راجع إلى الطابع القبلي، الصرف الذي كان عليه خلال هذه الحقبة التاريخية، حيث أن أقطاره التي كانت للبربر منذ آلاف السنين غلب عليها العمران البدوي، فقد تميز البربر بقلة مبانيهم، ولم يكن لهم تشوق إليها، فضلا عن كونهم أهل عصبية وأنساب، وهم أجنح إلى البدو والترحال، مما لا يدعو إلى الدعة والسكون، وبالتالي إلى قيام المدن، لذلك: "كان عمران إفريقية والمغرب كله، أو أكثره بدويا، أهل خيام ظواغن."

أما الحواضر التي كانت بالمغرب خلال هذه الحقبة التاريخية، فقد كانت من أحداث الفنيقيين أو الرومان، بل وحتى عهد الأدارسة، كان المغرب لا يزال يحتفظ بالمدن الرومانية دونما إضافات تذكر، إلا أنه وبعد قرنين من الاستقرار الإدريسي سيشهد المغرب تجديدا كليا لطبيعته العمرانية. فبحكم اتساع رقعته، وتعاقب أسره الحاكمة ظهرت حواضر مهمة في جميع المجالات : عسكرية وسياسية وتجارية وجل هذه المدن الجديدة في أصلها ذات شكل إسلامي، تميزها كثرة الحصون المحيطة بها، وتعدد جوامعها، لذلك يمكن القول بأن المغرب عرف تطورا عمرانيا خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين، وقد كان العامل السياسي من وراء هذا التطور.

وقد ازدادت الحركة العمرانية حيوية خلال القرنين الرابع والخامس بسبب الازدهار الاقتصادي الذي عرفه المغرب. فظهرت بذلك عدة حواضر، لعبت أدوارا مختلفة في المجالات السياسية والعسكرية والتجارية. فقد كان جلها بمثابة محطات للقوافل التجارية التي كانت على اتصال بأقاليم الرقيق وذهب بالسودان. وهكذا، فإن للمسالك التجارية الرابطة بين

الصحراء والمشرق الإسلامي من جهة، وبين موانئ البحر المتوسط وشبكة طرق التجارة العالمية من جهة أخرى دورا بارزا في هذه الحركة العمرانية النشيطة. واستمرت هذه الحواضر تلعب دورا في حياة المغرب الإسلامي على كل الأصعدة خاصة منها الصعيد التجاري، حيث اجتذبت عددا كبيرا من التجار المسيحيين والمشاركة.

ذلك إذن كان واقع المدن المغربية خلال المرحلة محل الدراسة. وإذا كان بعضها قد اندرس، أو أصبح مجرد أطلال مهجورة، فإن بعضها الآخر ظل محتفظا على وجوده، وحاملا لنفس أسمائه. ومن أشهر حواضر الصنف الأخير تبرز فاس، مراكش، سلا، سبتة وطنجة في المغرب الأقصى، وتاهرت وتلمسان وجاية في المغرب الأوسط، والقيروان ورقادة وصفاقس وسوسة وبنزرت وطبرقة وبونة في إفريقية. وكلها حواضر لعبت دورا بارزا في مجال من المجالات المذكورة، كما شكلت مراكز لبعض الصناعات الحرفية، وأسواقا تجارية. ومن هنا يمكن أن نميز بين نوعين من الحواضر الداخلية، وأخرى مرفئية.

#### أ- الحواضر الداخلية:

1-تلمسان: تعتبر قاعدة بلاد المغرب الأوسط وقفل بلاد المغرب، وهي على رصيف للداخل والخارج، ومقصد التجار الآفاق. وتكمن أهميتها الاقتصادية في كونها موقعا استراتيجيا لوجودها على الطريق التجاري الرابط بين سجلماسة والمناطق الشرقية. بالإضافة إلى أنها منطقة زراعية وفيرة الانتاج. فقد رتبها الإدريسي من حيث أهميتها الاقتصادية والاجتماعية كثالث مدينة في كل بلاد المغرب بعد مدينتي أغمات وفاس. كما اشتهرت تلمسان ببراعتها في أنواع معينة من الصناعات. فابن سعيد يذكر أنه انطلقا من هذه المدينة " تحمل ثياب الصوف المفضلة على جنسها المصنوع في سائر المغرب، وتحمل منها أيضا أجم الخيل والسروج وما يتبع ذلك.

2-القيروان: وهي عبارة عن مدينتين كما هو وارد في المصادر الجغرافية: إحداهما هي القيروان والثانية صبرة التي بناها إسماعيل الفاطمي سنة 337هـ/948م. والقيروان تمتد

في بسيط من الارض، من الجوف منها بحر تونس، وفي الشرق بحر سوسة والمهدية، وفي قبلتها بحر قابس وصفاقس، وهي أيضا على مسيرة يوم من البحر الشرقي والجبل وسواد الزيتون المعروف بالساحل.

وتكمن أهمية القيروان في وقوعها في مفترق الطرق القادمة من إفريقيا والذاهبة إلى مصر، وإلى وجودها كذلك بالقرب من أهم المرفئ الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، كتونس التي لا تبعد عنها سوى بمرحلتين بسير القوافل. ولا بد من الإشارة أيضا إلى أن إقليمها يعد من أخصب الأقاليم الزراعية، فهو يجمع بين أضداد الفواكه، وشجر التوت، وقصب السكر وكلها موارد رخيصة الأسعار، يتجهز بحريها وسكرها وزيتها إلى سائر الأقطار.

وبالإضافة إلى هذه الأهمية الاقتصادية التي كانت للقيروان، فإنها كانت كذلك دار علم ومعرفة، فالإليها ينتسب كثير من علماء المغرب، وإليها كان يتجه طلاب العلم والمعرفة، وقد امتحنت القيروان امتحانا عسيرا بسبب استيلاء القبائل العربية الهلالية عليها، حتى أن عمارتها قلت، وأصبحت مأوى للفلاحين وأهل البادية. غير أن المدينة سرعان ما ستستعيد مكانتها بعد فتح الموحدين لبلاد إفريقية، والقضاء على الإمارات العربية التي تكونت بها. ونظرا لكثرة التجار الذين كانوا يزورونها، فإن المشرفين على المدينة استحدثوا ضريبة فرضت على التجار الراغبين في بيع منتوجاتهم بأسواقها. ويذكر صاحب "الاستبصار" أن مقدار ما كان يجبي من باب واحد بلغ ستة وعشرون ألف درهم.

### ب- الحواضر المرفئية :

إذا كانت بعض الحواضر الداخلية قد تطورت، وازدهرت نتيجة لوقوعها على طرق القوافل التجارية، فإن بعض الحواضر المرفئية كان لها بدورها حضور ذو وزن في الحياة الاقتصادية للمغرب الإسلامي على عهد الموحدين، فقد كانت تمثل المحطات النهائية

للمنتجات الصحراوية، أو السودانية التي كان يتهافت عليها التجار الأجانب، ومن بين هذه الحواضر نذكر :

**بجاية:** من مدن المغرب الأوسط، عاصمة بني حماد، أهلها موقعها الاستراتيجي على ساحل البحر المتوسط لتصل بموانئ أوروبا المسيحية. وفي الوقت نفسه كانت محطة من محطات القوافل التجارية. إذ هي على اتصال وثيق بالمغرب الأقصى والصحراء والمشرق عبر مدن المسيلة وقلعة بشر وطبنة وسطيف. يدخلها تجار هذه الأقطار محملين ببضائعهم ليخرجوا منها ببضائع أخرى، كما تعتبر دار صناعة المراكب والسفن وعتاد الحرب. وقد ساعدها على ذلك وفرة الأخشاب بغابات جبال الأوراس، كما تشتهر بإنتاج الزفت والقطران، ومعالجة الحديد المستخرج من مناجمه القريبة منه، وكذلك النحاس المتوفر بجبال كتامة، بالإضافة إلى حجر الازورد.

ولم ينحصر دور بجاية في المساهمة في النشاطين الحرفي والتجاري فحسب، بل إن إنتاجها الزراعي كان له حضور ضمن لائحة صادراتها. فمزارعها كانت تنتج الشعير والحنطة والتين وفواكه متعددة. كما اشتهرت أيضا بإنتاجها للقطن لصناعة الألبسة الرفيعة.

2- **المهدية:** وهي مدينتان: إحداهما المهدية والثانية زويلة. وهي على ساحل القيروان، ومحطة للسفن التي تقصدها من كل الجهات، سواء من بلاد المشرق، أو المغرب، أو بلاد الأندلس، أو بلاد الروم، أو غيرها من البلدان.

وبفضل هذه الحركة التجارية النشيطة، فإن اقتصادها عرف ازدهارا واضحا طيلة تاريخها. وعلى الرغم من تعرضها للاحتلال النورماندي، فإن هذا الاحتلال لم يؤثر كثيرا على دورها الاقتصادي حتى أن النورمانديين بعد فرض هيمنتهم عليها اضطروا إلى التعامل معها تجاريا، فصدروا إليها منتجات بلادهم، كما استوردوا أهم منتجاتها. بل أن حاميتهم بالمدينة كانت تعيش على ما يصلها من مواد غذائية من أهاليها. ولم يتمكن عبد المومن من فتحها إلا بعد أن ضرب حولها حصارا وعسكريا واقتصاديا.

وقد وصفها الرحالة الإدريسي بالغنى واليسر ف" تجارتها رابحة تصل إلى جميع الآفاق في كل الأوقات. وتعتبر صناعة النسيج أشهر صناعاتها، فمنتجاتها كانت تصدر إلى سائر الأقطار. هذا فضلا عن دورها الفلاحي، فهي ذات زروع كثيرة، ومواشي وأغنام، وإصابات كثيرة في القمح والشعير، كما أن بها زيوتنا يعتصر منه زيت طيب عمت شهرته سائر بلاد إفريقية، ويصدر إلى بلاد المشرق.

### **للتفصيل ينظر**

النويري: نهاية الأرب في فنون العرب

البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب

ابن سعيد: كتاب الجغرافيا

المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم

مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار

ابن خلدون: المقدمة